□ عُلُوُّ الهِمَّة في التواضُع □

اعلم يا أخي أنَّ الكِبْر والعُجْب داءَانِ مُهْلكان ، والمتكبِّر والمعجب سقيمان مريضان ، وهما عند الله ممقوتان بغيضان .

والله عز وجلَّ الجبار المتكبِّر العلي الذي لا يَضَعُه عن مجْدِه واضِع ، الجبّار الذي كلُّ جبَّار له ذليل خاضع ، وكل متكبِّر في جَناب عِزِّه ، مسكين متواضع ، هو القهَّار الذي لا يدفعه عن مراده دافع ، الغني الذي ليس له شريك ولا مُنازِع ، القادر الذي بَهَر أبصار الخلائق جلالُه وبهاؤه ، وقهَر العرْش المجيد استواؤه واستعلاؤه ، وحصر ألسنَ الأنبياءِ وصفُه وثناؤه ، وارتفع عن حدِّ قدرتِهم إحصاؤه واستقصاؤه، فاعترف بالعجْز عن وصف كنْهِ جلاله ملائكتُه وأنبياؤه ، وكسر ظهورَ الأكاسرة عزُّه وعلاؤه ، وقصر أيديَ القياصرة عظمتُه وكبرياؤه ، فالعظمة إزاره ، والكبرياء رداؤه ، ومَن نازعه فيهما قصَمَه بداءِ الموت ، فأعجز دواؤه .

وقد أمر الله نبيه ﷺ بالتواضُع لمن آمن به من المؤمنين ؛ فقال عز وجل : ﴿ واخفضْ جَنَاحَك لِمَنِ اتَّبعك من المؤمنين ﴾ [الشعراء : ٢١٥] .

قال أبو حيان : « من اتبعك مؤمنًا فتواضَعْ له »[١] .

وقال الإمام القرطبي : « أي أَلِنْ جانبك لمن آمن بك ، وتواضع لهم »[٢] .

« ورسولنا ﷺ كان يقول : « اللهمَّ أحْيني مسكينًا ، وأمِتْني مسكينًا

---

(١) تفسير البحر المحيط ٤٦/٧ .

(٢) تفسير القرطبي صـ ٣٦٧٣ - طبعة : الشعب .

واحشرني في زمرة المساكين »[١] . تنويهًا بشَرَف هذا المقام وفضله »[٢] .

قال ابن الأثير : « أراد به التواضع والإخبات ، وأن لا يكون من الجبَّارين المتكبِّرين »[٣] .

قال ابن تيمية : « فالمسكين المحمود هو المتواضع الخاشع لله ، ليس المراد بالمسكنة عدم المال ، بل قد يكون الرجل فقيرًا من المال وهو جبَّار .. فالمسْكَنة خُلُق في النفس ، وهو التواضُع والخشوع ، واللِّين ضدُّ الكبر ، كما قال عيسى عليه السلام : ﴿ وبرًّا بوالدتي ولم يجعلْني جبَّارًا شقيًّا﴾ » [مريم: ٣٢][٤] .

وقال السبكي مخبرًا عن والده : « وكان رحمه الله يقول في قوله ﷺ : « اللهم أحيني مسكينًا » : إن المراد به استكانةُ القلب »[٥] .

فمن استكان قلبُه لله عز وجل وانكسَر له ، وتواضع لجلاله وكبريائه ، وعظمته وخشيته ، ومحبته ومهابته - جبره الله .

---

(١) حسن : أخرجه الترمذي ، والبيهقي في سننه والشُّعَب عن أنس ، وأخرجه ابن ماجه وعبد بن حُميد في مسنده ، والرافعي في « تاريخ قزوين » ، والخطيب في تاريخه ، وأبو بكر بن أبي شيبة عن أبي سعيد الخدري ، والطبراني في « الدعاء » ، وابن عدي في الكامل ، وأخرجه تمَّام في « فوائده » ، عن عبادة بن الصامت، والشيرازي في « الألقاب » عن ابن عباس .
وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة برقم ٣٠٨ ، ثم رجع عن تصحيحه واكتفى بتحسينه فقط في إرواء الغليل ٣/٣٦٣ .
وحسَّنه تلميذه النجيب علي بن حسن بن عبد الحميد الحلبي في « التعليقة الأمنية » ، في طُرق حديث : « اللهم أحيني مسكينًا » - مكتبة : ابن القيم . المدينة المنورة .

(٢) الخشوع في الصلاة لابن رجب صـ١٠ .

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ٢/٣٨٥ .

(٤) مجموع الفتاوى ١٨/٣٨٢ .

(٥) طبقات الشافعية ٣/١٣٤ .

ومدَحَ اللهُ عبادَه عبادَ الرحمن ، وجعل أول صفاتهم التواضع ؛ فقال تعالى : ﴿ **وعبادُ الرحمن الذين يمشون على الأرض هوْنًا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلامًا** ﴾ [الفرقان : ٦٣] .

قال ابن القيم في « المدارج » (٣٢٧/٢) : « أي سكينة ووقارًا متواضعين ، غير أشِرِين ولا مرحين ولا متكبِّرين . قال الحسن : علماء حلماء . وقال محمد ابن الحنفية : أصحاب وقار وعفَّة لا يسفهون ، وإن سُفِه عليهم حلموا .

والهَوْن - بالفتح - في اللغة : الرفْق واللِّين ، والهُون - بالضّم -: الهَوَان . فالمفتوح منه : صفة أهل الإيمان ، والمضموم : صفة أهل الكفران . وجزاؤهم من الله النيران » .

قال ابن كثير في تفسيره عن هذه الآية : « أي بسكينة ووقار ، من غير جبرية ولا استكبار » .

قال الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي : « ذكر أن صفاتهم أكمل الصفات ، ونعوتهم أفضل النعوت ، فوصفهم بأنهم ﴿ **يمشون على الأرض هونًا** ﴾ أي ساكنين متواضعين لله وللخلق ، فهذا وصْف لهم بالوقار والسكينة ، والتواضع لله ولعباده »[(١)] .

والتواضع علامة حبِّ الله للعبد :

قال تعالى : ﴿ **يأيُّها الذين آمنوا مَن يرتدَّ منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبُّهم ويحبُّونه أذلّة على المؤمنين أعزَّة على الكافرين** ... ﴾ الآية [المائدة : ٥٤] .

قال ابن كثير: «هذه صفات المؤمنين الكُمَّل؛ أن يكون أحدهم متواضعًا لأخيه ووليِّه ، متعزِّزًا على خصمه وعدوِّه »[(٢)] .

---

(١) تفسير كلام المنان للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي ٤٩٣/٥ .

(٢) تفسير ابن كثير ٧٣/٢ .

وقال ابن القيم : « لما كان الذلُّ منهم ذُلَّ رحمة وعطف وشفقة وإخبات ، عدّاه بأداة « على » تضمينًا لمعاني هذه الأفعال ؛ فإنه لم يُرد به ذل الهوان الذي صاحِبُه ذليل، وإنما هو ذلُّ اللِّين والانقياد الذي صاحبُه ذلول، فالمؤْمن ذَلُولٌ، كما في الحديث: «المؤمن كالجمل الذَّلُول، والمنافق والفاسق ذليل». وأربعة يعشقهم الذلُّ أشدَّ العشْقِ : الكذَّاب ، والنمَّام ، والبخيل ، والجبَّار .

وقوله : ﴿ **أعزَّة على الكافرين** ﴾ : هو مِن عزَّة القوة والمنَعَة والغَلَبَة . قال عطاء رضي الله عنه: «لِلْمؤمنين كالوالدِ لولده، وعلى الكافرين كالسَّبُع على فريسته » . كما قال في الآية الأخرى : ﴿ **أشدَّاء على الكفار رحماءُ بينهم** ﴾ . وهذا عكس حال منْ قيل فيهم :

كِبْرًا علينا وجُبنًا عن عدوِّكُمُ   لَبئْستِ الخلَّتانِ : الكِبْرُ والجبْنُ »[1]

والعلو كلُّ العلوِّ في الداريْن للمتواضعين ؛ قال تعالى : ﴿ **تلك الدارُ الآخرةُ نجعلها للذين لا يريدون عُلوًّا في الأرضِ ولا فسادًا والعاقبةُ للمتقين** ﴾ [القصص : ٨٣] .

قال ابن كثير : « يخبر تعالى أن الدار الآخرة ونعيمها المقيم الذي لا يحول ولا يزول، جعلها لعباده المؤمنين المتواضعين، ﴿**الذين لا يريدون عُلوًّا في الأرض**﴾ أي ترفُّعًا على خلْق الله، وتعاظُمًا عليهم، وتجبرًا عليهم، ولا فسادًا فيهم»[2] .

وقد وردت أحاديثُ عَطِرة في التواضع في السنة المطهَّرة :

فقد قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله أوحى إلي: أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ، ولا يبغي أحد على أحد »[3] .

---

(١) مدارج السالكين ٢/٣٢٧ - ٣٢٨ .

(٢) تفسير ابن كثير ٣/٤٠٢ .

(٣) أخرجه مسلم وابن ماجه وأبو داود وأبو نعيم عن عياض بن حمار .

وقال ﷺ : « إنَّ الله تعالى أوحى إليَّ : أن تواضعوا ، ولا يبغي بعضُكم على بعض »[١] .

وقال رسول الله ﷺ : « ما مِن آدميّ إلَّا في رأسه حَكَمَة[٢] بيد مَلَك ، فإذا تواضع قيل للمَلَك : ارفعْ حَكَمته . وإذا تكبّر قيل للملك : دعْ حَكَمتَه »[٣] .

وقال رسول الله ﷺ : « ما استكبَر مَن أكَلَ معه خادمُه، وركب الحمارَ بالأسواق، واعتقل[٤] الشاةَ فحلبها »[٥] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما زاد الله عبدًا بعفوٍ إلّا عِزًّا ، وما تواضع أحد لله إلّا رفعه الله » . رواه مسلم .

قال النووي: (« وما تواضع أحدٌ لله إلَّا رفعه الله » : فيه وجهان :

أحدهما : يرفعه الله في الدنيا ، ويُثبت له بتواضعه في القلوب منزلة ، ويرفعه الله عند الناس ، ويُجلُّ مكانَه .

والثاني : أن المراد ثوابه في الآخرة ، ورَفعْه فيها بتواضعه في الدنيا)[٦] .

---

(١) حسن : أخرجه البخاري في الأدب المفرد ، وابن ماجه عن أنس ، وحسَّنه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم ٢٥٧٠ ، وصحيح الجامع رقم ١٧٢٢ .

(٢) الحَكَمَة : الحديدة في اللجام تكون على أنف الفرس وحَنَكِه ؛ تمنعه عن مخالفة راكبه .

(٣) حسن : رواه الطبراني في الكبير عن ابن عباس ، والبزار عن أبي هريرة ، وحسَّنه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم ٥٣٥ ، وصحيح الجامع رقم ٥٥٥١ .

(٤) أي : حلبها .

(٥) حسن : رواه البخاري في الأدب المفرد ، والبيهقي في شعب الإيمان ، والديلمي عن أبي هريرة ، وحسَّنه الألباني في الصحيحة رقم ٢٢١٨ ؛ وصحيح الجامع رقم ٥٤٠٣ .

(٦) شرح مسلم للنووي ١٦/١٤٣ .

قال أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه : وجدْنا الكَرَمَ في التقوى، والغنى في اليقين، والشرف في التواضع .

وقال عروة بن الورْد : التواضُع أحد مصائد الشرف ، وكلُّ نعمة محسودٌ عليها صاحبها إلّا التواضع .

وقال إبراهيم بن شيبان : الشرف في التواضع ،والعزُّ في التقوى ، والحرية في القناعة .

وقال مصعب بن الزبير : التواضع مصايد الشرف .

درجاتُ التواضُع :

قال شيخ الإسلام الهروي : وهو على ثلاث درجات :

« **الدرجة الأولى : التواضعُ للدِّين : وهو أنْ لا يُعارضَ بمعقولٍ منقولًا ، ولا يتهم للدِّين دليلًا ، ولا يرى إلى الخلاف سبيلًا** » :

قال ابن القيم : « **التواضع للدين** » : هو الانقياد لما جاء به الرسول ﷺ ، والاستسلام له ، والإذعان . وذلك بثلاثة أشياء :

● **الأول** : أن لا يعارض شيئًا مما جاء به بشيءٍ من المعارضات الأربعة السارية في العالم ؛ المسمَّاة بـ : المعقول ، والقياس ، والذوق ، والسياسة .

فالأول : للمنحرفين أهل الكِبْر من المتكلّمين ، الذين عارضوا نصوص الوحي بمعقولاتهم الفاسدة ، وقالوا : إذا تعارَض العقل والنقل ؛ قدَّمنا العقل وعزلْنا النقل ؛ إما عزْلَ تفويض ، وإما عَزْل تأويل .

والثاني : للمتكبِّرين من المنتسبين إلى الفقه ؛ قالوا : إذا تعارض القياس والرأي والنصوص ؛ قدَّمنا القياس على النصِّ ، ولم نلتفتْ إليه .

والثالث: للمتكبرين المنحرفين من المنتسبين إلى التصوُّف والزهد . فإذا تعارض عندهم الذوْق والأمر ؛ قدموا الذوْق والحال ، ولم يعبئوا بالأمر .

والرابع : للمتكبرين المنحرفين من الولاة والأمراء الجائرين . إذا تعارضت عندهم الشريعة والسياسة ؛ قدَّموا السياسة ، ولم يلتفتوا إلى حكم الشريعة .

فهؤلاء الأربعة : هم أهل الكبر . والتواضع : التخلُّص من ذلك كلِّه .

● **الثاني** : أن لا يتهم دليلًا مِن أدلَّة الدين ، بحيث يظنُّه فاسد الدلالة ، أو ناقص الدلالة أو قاصرها ، أو أنَّ غيره كان أولى منه . ومتى عرض له شيء من ذلك فليتهمْ فهْمَه ، وليْعلمْ أن الآفة منه ، والبلية فيه ، كما قيل :

وكم من عائبٍ قولًا صحيحًا　　　وآفتُه مِنَ الفهمِ السقيمِ
ولكنْ تأخذُ الأذهانُ منه　　　على قدْرِ القرائحِ والفهومِ

وهكذا الواقع في الواقع حقيقة: أنه ما اتهم أحدٌ دليلًا للدِّين إلَّا وكان المتهِم هو الفاسد الذهْن، المأفون في عقله وذِهنه . فالآفة من الذهن العليل ، لا في نفس الدليل .

وإذا رأيتَ من أدلَّة الدين ما يشكُل عليك، وينبو فهمُك عنه ، فاعلمْ أنه لعظمته وشرفه استعصى عليك ، وأن تحته كَنْزًا مِن كُنوز العلم ، ولم تُؤْتَ مفتاحه بعدُ . هذا في حقِّ نفسك .

وأما بالنسبة إلى غيرك : فاتهمْ آراء الرجال على نصوص الوحي ، ولْيكنْ ردُّها أيسرَ شيءٍ عليك للنصوص ، فما لم تفعلْ ذلك فلستَ على شيءٍ . ولو .. ولو .. وهذا لا خلاف فيه بين العلماء .

قال الشافعي - قدَّس الله روحه -: أجمع المسلمون على أن مَنِ استبانت له سنة رسول الله ﷺ ؛ لم يحلَّ له أن يدَعَها لقول أحد .

● **الثالث** : أن لا يجد إلى خلاف النصِّ سبيلًا ألبتة ؛ لا بباطنه ولا بلسانه ، ولا بفعله ولا بحاله . بل إذا أحسَّ بشيءٍ من الخلاف : فهو كخلاف الْمُقْدِمِ على الزنا وَشُرْب الخمر وقتْل النفس ، بل هذا الخلاف أعظم عند الله

من ذلك ، وهو داعٍ إلى النفاق ، وهو الذي خافه الكبار والأئمة على نفوسهم.

واعلمْ أن المخالف للنصِّ لقول متبوعه وشيخه وَمُقَلَّده ، أو لرأيه ومعقوله وذوْقه وسياسته ؛ إن كان عند الله معذورًا - ولا والله ما هو بمعذور - فالمخالف لقوله لنصوص الوحْي أولى بالعُذْر عند الله ، ورسوله ، وملائكته ، والمؤمنين من عباده .

فواعجبًا إذا اتسع بطلان المخالفين للنصوص لعذْر مَن خالفها تقليدًا ، أو تأويلًا ، أو لغير ذلك !! فكيف ضاق عن عذْر مَن خالف أقوالهم ، وأقوال شيوخهم لأجل موافقة النصوص ؟! وكيف نصبوا له الحبائل، وبغوه الغوائل ، ورموه بالعظائم ، وجعلوه أسوأ حالًا من أرباب الجرائم ، فرموه بدائهم وانسلُّوا منه لِوَاذًا ، وقذفوه بمصابهم وجعلوا تعظيم المتبوعين ملاذًا لهم ومعاذًا ؟! والله أعلم .

قال : « ولا يصحُّ ذلك إلا بأن يعلم أن النجاة في البصيرة والاستقامة بعد الثقة ، وأن البينة وراء الحجَّة » .

يقول : إنَّ ما ذكرناه من التواضع للدين : بهذه الأمور الثلاثة :

الأول : علْمُه أن النجاة من الشقاء والضلال ، إنما هي في البصيرة ؛ فمن لا بصيرة له : فهو مِن أهل الضلال في الدنيا والشقاء في الآخرة .

والبصيرة نور يجعلُه الله في عيْن القلب ، يفرِّق به العبد بين الحقِّ والباطل ، ونسبته إلى القلب : كنسبة ضوء العيْن إلى العيْن .

وهذه « البصيرة » وهبية وكسبية ؛ فمن أدار النظر في أعلام الحقِّ وأدلَّته ، وتجرَّد لله من هواه ؛ استنارت بصيرته ، ورُزق فرقانًا يفرِّق به بين الحق والباطل .

الثاني : أنْ يعلم أنَّ الاستقامة إنما تكون بعد الثقة ؛ أي لا يتصوَّر حصول الاستقامة في القول والعمل والحال ، إلّا بعد الثقة بصحَّة ما معه مِن العلم . وأنه

مُقتبَس من مشكاة النبوة . ومن لم يكن كذلك فلا ثقة له ولا استقامة .

الثالث : أن يعلم أن البينة وراء الحجَّة ؛ و « البينة » مراده بها : استبانة الحقِّ وظهوره ، وهذا إنما يكون بعد الحجة إذا قامتْ استبان الحق وظهر واتضح .

وفيه معنىً آخر ، وهو : أن العبد إذا قبل حجَّة الله بمحْض الإيمان والتسليم والانقياد ؛ كان هذا القبول هو سبب تبيُّنها وظهورها وانكشافها لقلبه . فلا يصبر على بينة ربِّه إلَّا بعد قبول حُجَّته .

وفيه معنًى آخر أيضًا : أنه لا يتبيّن له عيب عمله مِن صحَّته إلَّا بعد العلم الذي هو حجَّة الله على العبد ، فإذا عرف الحجَّة اتضح له بها ما كان مشْكَلًا عليه من علومه ، وما كان معيبًا من أعماله .

وفيه معنًى آخر أيضًا : وهو أن يكون « وراء » بمعنى أمام ؛ والمعنى : أن الحجَّة إنما تحصل للعبد بعد تبينها ، فإذا لم تتبيَّن له لم تكن له حجَّة ؛ يعني فلا يقنع من الحجة بمجرَّد حصولها بلا تبيُّن؛ فإن التبيُّن أمام الحجة. والله أعلم .

الدرجة الثانية : « أنْ ترضى بما رضيَ الحقُّ به لنفسه عبدًا من المسلمين أخًا ، وأن لا تردَّ على عدوِّك حقًّا ، وأن تقبلَ من المعتذِر معاذيره » :

قال شيخ الإسلام ابن القيم رحمه الله : « يقول : إذا كان الله قد رضي أخاك المسلم لنفسه عبدًا ، أفلا ترضى أنت به أخًا ؟! فعدم رضاك به أخًا - وقد رضيه سيِّدك الذي أنت عبدُه ، عبدًا لنفسه - عيْنُ الكِبْر . وأيُّ قبيح أقبح من تكبُّر العبد على عبد مثله ، لا يرضى بأخوته ، وسيده راض بعبوديته ؟!

فيجيء من هذا : أن المتكبِّر غيرُ راضٍ بعبودية سيِّده ؛ إذ عبوديته تُوجب رضاه بأخوَّة عبدِه ، وهذا شأن عبيد الملوك ؛ فإنهم يرون بعضهم خُشْداشيةَ بعضٍ ، ومَن ترفَّع منهم عن ذلك ؛ لم يكن مِن عبيد أستاذهم .

قوله : « وأن لا تردَّ على عدوِّك حقًّا » : أي لا تصحّ لك درجة « التواضع » حتى تَقبلَ الحق ممَّن تحبُّ وممَّن تُبغض ، فتقبله من عدوِّك كما تقبله من وليِّك ، وإذا لم تردَّ عليه حقّه ، فكيف تمنعه حقًّا له قِبَلَك ؟! بل حقيقة «التواضع»: أنه إذا جاءك قَبِلْتَه منه، وإذا كان له عليك حقٌّ أدَّيتَه إليه، فلا تمنعك عداوته من قبول حقِّه، ولا من إتيانه إياه .

وأمَّا « قبولك من المعتذر معاذيره » : فمعناه : أن من أساء إليك ، ثم جاء يعتذر من إساءته ؛ فإن « التواضُع » يوجب عليك قبول معذرته ، حقًّا كانت أو باطلًا ، وتكِلُ سريرته إلى الله تعالى ، كما فعل رسول الله ﷺ في المنافقين الذين تخلَّفوا عنه في الغزو، فلمَّا قَدِم جاءوا يعتذرون إليه ؛ فقبل أعذارهم ووكل سرائرهم إلى الله تعالى .

وعلامة الكرم والتواضع : أنك إذا رأيتَ الخلَلَ في عذْره لا تُوقفْه عليه ولا تحاجَّه ، وقل : يمكن أن يكون الأمرُ كما تقول . ولو قضي شيءٌ لَكَان ، والمقدور لا مدفع له . ونحو ذلك » .

الدرجة الثالثة : « أن تَتَّضعَ للحقِّ ، فتنزل عن رأيك وعوائدك في الخدمة ، ورؤية حقِّك في الصحْبة ، وعن رَسْمك في المشاهدة » :

قال ابن القيم رحمه الله : « يقول : « التواضع » بأن تخدم الحقَّ سبحانه وتعبده بما أمرك به ، على مقتضى أمره لا على ما تراه من رأيك ، ولا يكون الباعث لك داعي العادة ، كما هو باعث مَن لا بصيرة له ، غير أنه اعتاد أمرًا فجرى عليه ، ولو اعتاد ضدَّه لكان كذلك .

وحاصلُه : أنه لا يكون باعثه على العبودية مجرَّد رأي ، وموافقة هوى ، ومحبة وعادة . بل الباعث مجرَّد الأمر ، والرأيُ والمحبَّة والهوى والعوائد : منفذة تابعة ، لا أنها مطاعة باعثة . وهذه نكتة لا يتنبَّه لها إلّا أهلُ البصائر .

وأما : « نزوله عن رؤية حقِّه في الصحبة » : فمعناه : أن لا يرىٰ لنفسه حقًّا على الله لأجل عمله ؛ فإن صحبته مع الله : بالعبودية والفقر المحْض ، والذل والانكسار. فمتى رأى لنفسه عليه حقًّا فسدت الصحبة، وصارت معلولة وخِيف منها المقت ، ولا ينافي هذا ما أحقَّه سبحانه على نفسه ، من إثابة عابديه وإكرامهم ؛ فإن ذلك حقٌّ أحقَّه على نفسه بمحْض كرمه وبرِّه وجوده وإحسانه ، لا باستحقاق العبيد ، وأنهم أوجبوه عليه بأعمالهم .

فعليك بالفرقان في هذا الموضع الذي هو مفترَق الطرق . والناس فيه ثلاث فرق : فرقة رأت أن العبد أقلّ وأعجز من أن يُوجب على ربِّه حقًّا . فقالت : لا يجب على الله شيء ألبتة . وأنكرت وجوبَ ما أوجب على نفسه .

وفرقة رأت أنه سبحانه أوجب على نفسه أمورًا لعبده ، فظنَّت أن العبد أوجبها عليه بأعماله ، وأن أعماله كانت سببًا لهذا الإيجاب . والفرقتان غالطتان .

والفرقة الثالثة : أهل الهدى والصواب ، قالت : لا يستوجب العبد على الله بسعْيه نجاة ولا فلاحًا . ولا يُدخل أحدًا عملُه الجنة أبدًا ، ولا يُنجيه من النار . والله تعالى – بفضله وكرمه ، ومحض جوده وإحسانه – أكد إحسانه وجوده وبرَّه بأنْ أوجب لعبده عليه سبحانه حقًّا بمقتضى الوعد ؛ فإن وعْد الكريم إيجاب ، ولو بـ « عسىٰ ، ولعلَّ » .

ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما : « عسى » : من الله واجب .
ووعْد اللئيم خلْف ، ولو اقترن به العهد والحلف .

والمقصود : أن عدم رؤية العبد لنفسه حقًّا على الله ، لا ينافي ما أوجبه الله على نفسه ، وجعله حقًّا لعبده ، قال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل رضي الله عنه : « يا معاذ ، أتدري ما حقُّ الله على العباد ؟ » قال : الله ورسوله أعلم . قال:« حقه عليهم أن يعبدوه لا يشركوا به شيئًا . يا معاذ ، أتدري ما حقُّ

العباد على الله إذا فعلوا ذلك ؟ » . قلتُ : الله ورسوله أعلم . قال : « حقُّهم عليه أن لا يعذبهم بالنار » .

فالربُّ سبحانه ما لأحدٍ عليه حقٌّ . ولا يضيع لديه سعي ، كما قيل :

ما للعبادِ عليه حقٌّ واجبُ ... كلا ولا سعْي لديهِ ضائِعُ
إن عُذِّبوا فبعدْله أو نُعموا ... فبفضله وهو الكريمُ الواسِعُ

وأما قوله : « وتنزل عن رسْمك في المشاهدة » :

أي من جملة التواضع للحق : فَناؤك عن نفسك ؛ فإن رسْمه هي نفسه ، والنزول عنها : فَناؤه عنها حين شهوده الحضرة ، وهذا النزول يصحُّ أن يُقال : كسبيٌّ باعتبار ، وإن كان عند القوم غير كسبي ؛ لأنه يحصل عند التجلي ، والتجلي نور ، والنور يقهر الظلمة ويبطلها ، والرسم عند القوم ظلمة ، فهي تنفر من النور بالذات ، فصار النزول عن الرسْم حين التجلى ذاتيًّا .

ووجه كونه كسبيًّا : أنه نتيجة المقامات الكسبية ، ونتيجة الكسبي : كسبيّ .

وثمرته ، وإن حصلت ضرورة بالذات : لم يمتنع أن يُطلق عليها : كونها كسبية باعتبار السبب . والله أعلم » .

عُلُوُّ همَّة سيِّدِ ولدِ آدمَ ﷺ في التواضع :

لقد كان رسول الله ﷺ أشدَّ الناس تواضعًا ؛ ويَبرز ذلك واضحًا جليًّا في :

تواضُعه مع ربِّه عزَّ وجل :

لقد اختار رسول الله ﷺ أن يكون عبدًا رسولًا عن أن يكون ملِكًا نبيًّا ؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : جلس جبريل إلى النبي ﷺ ، فنظر إلى السماء فإذا مَلَك ينزِل ، فقال جبريل : إن هذا المَلَكَ ما نزل منذ يوم خُلِق قبل الساعةِ ، فلمّا نزل قال : يا محمد ، أرسَلني إليك ربُّك قال : أفمَلِكًا نبيًّا

يجعلك ، أو عبدًا رسولًا ؟ قال جبريل : تواضَعْ لربِّك يا محمد . قال : « بل عبدًا رسولًا »[١] .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « يا عائشة ، لو شئتُ لسارتْ معي جبال الذهب ، جاءني مَلَكٌ ، إنَّ حُجْزته لتُساوي الكعبةَ ، فقال : إن ربَّك يقرأ عليك السلام ويقول : إنْ شئتَ نبيًّا عبدًا ، وإن شئتَ نبيًّا ملِكًا . فنظرت إلى جبريل عليه السلام ، فأشار إليَّ أن ضعْ نفسك . قال : فقلتُ : نبيًّا عبدًا . قالت : وكان رسول الله ﷺ بعد ذلك لا يأكل متكئًا، يقول : آكل كما يأكل العبد ، وأجلس كما يجلس العبد »[٢] .

تواضعه ﷺ مع الناس :

عن أنس رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ « كان يمرُّ على الصبيان فيسلِّم عليهم »[٣] .

وعن جرير رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ : « كان يمرُّ بنساءٍ فيسلِّم عليهنَّ »[٤] .

وقال أنس بن مالك رضي الله عنه : « كانت الأَمَة تأخذ بيده ﷺ ، فتنطلق به حيث شاءت »[٥] .

---

(١) صحيح : قال الهيثمي في المجمع ١٩/٩ : « رواه أحمد والبزار وأبو يعلى ورجال الأوَّلَيْن رجال الصحيح ، ورواه أبو يعلى بإسناد حسن » .

(٢) صحيح لغيره : رواه البغوي في شرح السنة .

(٣) رواه البخاري ومسلم والدارمي .

(٤) صحيح : رواه أحمد في مسنده عن جرير ، وأخرجه ابن السني ، والطبراني في الكبير ، والبخاري في الأدب ، وأبو داود والترمذي عن أسماء الأنصارية وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٤٨٩١) .

(٥) رواه البخاري .

وعن أنس رضي الله عنه : أنَّ امرأةً جاءت إلى النبي ﷺ فقالت له : إن لي إليك حاجة . فقال : « يا أُمَّ فلان ، اجلسي في أي طُرُق المدينة شئْتِ ، أجلسْ إليك »[١] .

وفي رواية لمسلم : « فخلا معها في بعض الطريق حتى فرغت من حاجتها » .

وعن سهل بن حنيف قال : «كان رسول الله ﷺ يأتي ضعفاءَ المسلمين ويزورهم ، ويعود مرضاهم ، ويشهد جنائزهم »[٢] .

وعن أنسٍ رضي الله عنه قال : « كان ﷺ يُردِف خلفه ، ويضع طعامه على الأرض ، ويُجيب دعوة المملوك ويركب الحمار »[٣] .

وعن أبي أيوب رضي الله عنه قال : كان ﷺ يركب الحمار ، ويخصف النعل ويرقع القميص ، ويلبس الصوف ، ويقول : « مَن رغِب عن سنتي فليس مني »[٤] .

عن الحسن البصري رحمه الله أنه ذُكر رسول الله ﷺ فقال : « لا والله ، ما كانت تُغلق دونه الأبواب ، ولا يقوم دونه الحجاب ، ولا يُغدى عليه بالجِفان ، ولا يروح عليه بها ، ولكنه كان بارزًا ، من أراد أن يلقى نبيَّ الله لقيَه ، وكان يجلس بالأرض ، ويُوضع طعامُه بالأرض ، يلبس الغليظ ، ويركب الحمار ، ويُردِف عبدَه ويَعلِف دابَّته بيده »[٥] .

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

(٢) صحيح : رواه أبو يعلى والطبراني والحاكم ، وصحَّحه الألباني في الصحيحة رقم ٢١١٢ .

(٣) صحيح : رواه الحاكم وصحَّحه ووافقه الذهبي ، وصحَّحه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم ٢١٢٥ .

(٤) حسن : أخرجه ابن عساكر عن أبي أيوب ، وأخرجه أبو الشيخ ، والسهمي وابن سعد عن الحسن البصري مرسلًا ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٤٨٢٢ ، والسلسلة الصحيحة رقم ٢١٣ .

(٥) صفة الصفوة ١/١٦٨ - ١٦٩ .

وعن أنس رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ « كان يزور الأنصار ، ويسلِّم على صبيانهم ، ويمسح رؤوسهم »(١) .

وعن أنس رضي الله عنه أنه قال : إنْ كان رسول الله ﷺ لَيُخالطنا حتى يقول لأخٍ لي صغير : « يا أبا عُمير ، ما فعَل النُّغَيْر ؟ »(٢) .

وفي رواية البخاري : كان أحسن الناس خلقًا ، وكان لي أخٌ يُقال له : أبو عُمير، وهو فطيم، كان إذا جاءَنا قال: « يا أبا عُمير ، ما فعل النُّغَيْر ؟ » . لنُغر كان يلعب به .

وعن أنس رضي الله عنه قال : لم يكن شخص أحبَّ إليهم من رسول الله ﷺ ، قال : وكانوا إذا رأوه لم يقوموا ؛ لما يعلمون من كراهته لذلك(٣) .

وعن أنس رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ « كان إذا لقيه أحد من أصحابه فقام معه ، قام معه فلم ينصرف حتى يكون الرجل هو الذي ينصرف عنه ، وإذا لقيه أحد من أصحابه فتناول يده ، ناوله إياها فلم ينزع يده منه حتى يكون الرجل هو الذي ينزع يده منه ، وإذا لقي أحدًا من أصحابه فتناول أذنه ، ناوله إياها ، ثم لم ينزعْها حتى يكون الرجل هو الذي ينزعها عنه »(٤) .

وعن ابن أبي أوفى رضي الله عنه ، أنه ﷺ « كان يُكثر الذكر ، ويُقلُّ اللَّغْوَ ، ويُطيل الصلاة ويقصر الخطبة ، وكان لا يأنف ولا يستكبر أن يمشي مع الأرملة والمسكين والعبد ، حتى يقضي له حاجته »(٥) .

---

(١) صحيح : أخرجه النسائي ، والطحاوي ، وأبو نعيم في الحلية ، والخطيب في تاريخه ، وصحَّحه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم ١٢٧٨ ، وصحيح الجامع رقم ٤٨٢٣ .

(٢) رواه البخاري ومسلم والترمذي واللفظ له ، وأبو عمير : أخٌ لأمٍّ لأنس ، وهو ابن أبي طلحة. النُّغَيْر: تصغير النُّغَر، بضمِّ النون وفتح الغين، وهو عصفور صغير .

(٣) صحيح : رواه الترمذي والبخاري في الأدب المفرد .

(٤) حسن : أخرجه ابن سعد وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٤٦٥٦ .

(٥) صحيح : رواه النسائي والحاكم عن ابن أبي أوفى ، والحاكم عن أبي سعيد ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٤٨٨١ .

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تُطروني كما أطرتِ النصارى عيسى بن مريم ؛ إنما أنا عبد ، فقولوا : عبد الله ورسوله »[١] .

وعن أنس أنَّ رجلًا قال : يا محمد أَيَا سيدنا وابنَ سيدنا ، وخيْرنا وابنَ خيرنا ، فقال رسول الله ﷺ : « يا أيُّها الناس ، عليكم بتقواكم ، ولا يستهوينَّكم الشيطان ، أنا محمد بن عبد الله ، أنا عبد الله ورسوله ، ما أحبُّ أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلنيها الله »[٢] .

وعن جابر رضي الله عنه قال : « كان رسول الله ﷺ يتخلَّف في المسير ، فيزجي الضعيف ، ويردف ، ويدعو لهم »[٣] .

وعن أبي رفاعة تميم بن أُسيد رضي الله عنه ، قال : انتهيتُ إلى رسول الله ﷺ وهو يخطب ، فقلتُ : يا رسول الله ، رجل غريب جاءَ يسأل عن دينه ، لا يدري ما دينه ؟ فأقبَلَ عليَّ رسول الله ﷺ وترَك خطبته ، حتى انتهى إليّ ، فأُتي بكرسيٍّ حسبتُ قوائمه حديدًا ، فقعد عليه ، وجعل يعلِّمني ممَّا علَّمه الله ، ثم أتى خطبته فأتمَّ آخرها[٤] .

تواضعه معَ أهلِهِ وبيته :

عن الأسود بن يزيد قال: «سُئِلَتْ عائشة: وما كان النبي ﷺ يصنع في بيته؟

---

(١) رواه البخاري في صحيحه ؛ بدء الخلق ، باب قوله تعالى : ﴿ **واذكرْ في الكتاب مريم** ﴾ .

(٢) صحيح : رواه أحمد في مسنده ، وقال الألباني في السلسلة الصحيحة ١٥٧٢ : إسناده على شرط مسلم .

(٣) صحيح : رواه أبو داود والحاكم ، وصحَّحه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم ٢١٢٠ .

(٤) رواه مسلم .

قالت : كان يكون في مهنة أهله ، فإذا حضرتِ الصلاة ، قام إلى الصلاة »[١] .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : « إنما كان فراش رسول الله ﷺ الذي ينام عليه ، أدَمًا حَشْوه ليفٌ »[٢] .

وعن أبي موسى رضي الله عنه : كان رسول الله ﷺ يركب الحمار ، ويلبس الصوف ، ويعتقل الشاة ، ويأتي مراعاة الضيف[٣] .

وعن ثابت قال : أخرَجَ إلينا أنس بن مالك قدَحَ خشبٍ غليظًا مُضبَّبًا بحديد ، فقال : يا ثابت ، هذا قدَحُ رسول الله ﷺ[٤] .

وعن أنس قال : إنَّ خيّاطًا بالمدينة دعا النبي ﷺ لطعامه . قال : فإذا خبز شعيرٍ بإهالةٍ سنخة ، وإذا فيها قرْعٌ . قال : فرأيتُ النبي ﷺ يُعجبه القرْع . قال أنس : لم يزل يُعجبني القرْعُ منذ رأيتُ رسول الله ﷺ يُعجبه[٥] .

وعن عمرو بن حريث قال : رأيتُ رسول الله ﷺ يصلي في نعليْن مخصوفتين[٦] .

وعن أنس قال : كان ﷺ يُؤتى بالتمر فيه دُود ، فيفتِّشه ، يُخرج السُّوسَ منه[٧] .

---

(١) أخرجه البخاري .

(٢) رواه مسلم .

(٣) صحيح : رواه الحاكم في المستدرك ، وصحَّحه ووافقه الذهبي ، وتابعه الألباني في السلسلة الصحيحة ٥/١٥٥ .

(٤) صحيح : رواه الترمذي في الشمائل ، وصحَّحه الألباني رقم ١٦٧٦ .

(٥) سنده صحيح : رواه أحمد . والإهالة : هي مما يؤتدم به من الادِّهان . والسنخة : المتغيِّرة الرائحة .

(٦) رواه البخاري ومسلم ، والترمذي في الشمائل ، واللفظ له . والنعلان المخصوفتان : أي المخروزتان أو المرقَّعتان .

(٧) صحيح : رواه أبو داود وابن ماجه مختصرًا ، وصحَّحه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم ٢١١٣ .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قلتُ: يا رسول الله ، الوضوءُ من جرٍّ جديد مُخمَّر ؛ أحبُّ إليك أم من المطاهر ؟ قال : « لا ، بل من المطاهر ؛ إنَّ دين الله يسْرٌ ، الحنيفيّة السَّمْحة » .

قال(١) : كان يبعث إلى المطاهر ، فيؤتى بالماءِ فيشربه ، يرجو بركة أيـدي المسلمين(٢) .

وعن عبَّاد بن تميم ، عن عمِّه ؛ أنه رأى النبي ﷺ مستلقيًا في المسجد واضعًا إحدى رجليْه على الأخرى(٣) .

وعن أنسٍ : أنَّ رسول الله ﷺ كان إذا أكل طعامًا ، لعقَ أصابعه الثلاث(٤) .

وعنه أيضًا قال : ما علمتُ النبي ﷺ أكل على سُكُرُّجة قطّ ، ولا خُبز له مرقَّق قط ، ولا أكَل على خِوان قطُّ .

قيل لقتادة : فعلامَ كانوا يأكلون ؟ قال : على السفر(٥) .

---

(١) أي : ابن عمر .

(٢) حسن : رواه الطبراني في الأوسط ، وأبو نعيم في الحلية ، وحسَّنه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم ٢١١٨ . والمطاهر ، جمع المطهرة : كلُّ إناء يتطهَّر منه ؛ كالإبريق والركوة وغيرها .

(٣) رواه البخاري ومسلم ، والترمذي في الشمائل واللفظ له .

(٤) رواه مسلم .

(٥) رواه البخاري . قال الشيخ الألباني : « الخوان - بكسْر الخاء ويُضمُّ -: وهو مرتفع يهيَّأ ليُؤْكَل الطعام عليه . والسكرجة بضم السين والكاف والراء المشدَّدة المضمومة : هي إناء صغير يُوضع فيه الشيء القليل المشهي للأكل ؛ كالسلطة والمخلل . والسُّفر : جمع سفرة ، وهي أخصُّ من المائدة ، وهي ما يمدُّ ويُبْسط ليُؤْكل عليه ، سواء كان من الجلد أو الثياب » . اهـ . من : مختصر الشمائل المحمدية صـ ٨٨ .

تواضع موسى عليه السلام :

قال أبو سليمان الداراني : « إن الله عز وجل اطَّلع على قلوب الآدميِّين ، فلم يجد أشدَّ تواضعًا من قلب موسى عليه السلام ، فخصَّه من بينهم بالكلام »[(١)] .

تواضعُ الصِّدِّيق رضي اللهُ عنه[(٢)] :

قال الصديق رضي الله عنه : وددتُ أني شعرةٌ في جنْب عبد مؤمن[(٣)] .

قال هذا رضي الله عنه وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية : « في « المسند » مِن وجهيْن عن النبي ﷺ : أن النبي ﷺ وُزِن بالأُمَّة فرَجَحَ ، ثم وُزِن أبو بكر بالأُمّة فرجَحَ ، ثم وُزن عمر بالأُمة فرجح »!!![(٤)]

هذا الصديق العظيم الذي كان يحلب للضعفاء أغنامهم .

تواضع الفاروق رضي الله عنه :

عن حزام بن هشام ، عن أبيه ، قال : رأيتُ عمر بن الخطاب رضي اللهُ عنه مرَّ على امرأةٍ وهي تعصد عصِيدة لها، فقال: ليسَ هكذا يُعْصد. ثم أخذ المسوط فقال : هكذا . فأَرَاها[(٥)] .

عن أسلمَ ، قال : « قدِم عمر بن الخطاب رضي الله عنه الشامَ على بعير ، فجعلوا يحدِّثون بينهم ، فقال عمر : تطمح أبصارهم إلى مراكبَ مَن لا خَلاق له !! »[(٦)] .

---

(١) إحياء علوم الدين .

(٢) سيأتي في علو همَّة الخلفاء والملوك .

(٣) الزهد لأحمد صـ١٠٨ .

(٤) الإيمان لابن تيمية – الطبعة الثانية ، المكتب الإسلامي .

(٥) طبقات ابن سعد ، وحياة الصحابة للكاندهلوي ٢/٥٥٠ .

(٦) أخرجه ابن عساكر وابن المبارك .

يعيب عليهم أمنيتهم مراكب المتكبِّرين .

وعن محمد بن عمر المخزومي، عن أبيه قال: نادى عمر بن الخطاب: الصلاةُ جامعة . فلمَّا اجتمع الناس وكثروا صعِد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، وصلى على نبيِّه ﷺ ثم قال: أيُّها الناس، لقد رأيتُني أرعى على خالاتٍ لي من بني مخزوم ، فيقبضْنَ لي القبضة من التمر والزبيب فأظلّ يومي وأيّ يوم . ثم نزل ، فقال عبد الرحمن بن عوف : يا أمير المؤمنين ، ما زلت على أن قمِئْتَ[1] نفسَك ؟! فقال : ويْحَك يا ابن عوْف !! إني خلوتُ فحدَّثتْني نفسي ، فقالت : أنت أمير المؤمنين ؛ فمن ذا أفضل منك ؟! فأردتُ أن أعرِّفها نفْسها[2] .

وعن الحسن قال : خرج عمر بن الخطاب في يوم حارٍّ واضعًا رداءَه على رأسه ، فمرَّ به غلام على حمار ، فقال : يا غلام ، احملني معك . فوثب الغلام عن الحمار ، وقال اركبْ يا أمير المؤمنين . قال : لا ، اركبْ وأركبُ أنا خلفك . تريد تحملني على المكان الوطيء ، وتركبُ أنت على الموضع الخَشِن !! فركب خلف الغلام ، فدخل المدينة ، وهو خلفه والناس ينظرون إليه[3] .

« وعن أبي محذورة قال : كنت جالسًا عند عمر رضي الله عنه ، إذ جاء صفوان بن أُمَيَّة بجَفْنَة يحملها نفرٌ في عباءة، فوضعوها بين يدي عمر، فدعا عمر ناسًا مساكينَ وأرِقَّاء من أرقَّاء الناس حوْله ، فأكلوا معه ، ثم قال عند ذلك : فعَلَ الله بقوم – أو قال : لحى[4] الله قومًا – يرغبون عن أرقائهم أن

---

(١) قمئْتَ : أي : عِبْت .

(٢) طبقات ابن سعد (٢٩٣/٣) .

(٣) حياة الصحابة ٥٥١/٢ .

(٤) أي : قبحهم الله ولعنهم .

يأكلوا معهم !! فقال صفوان : أمَا واللهِ ، ما نرغب عنهم ، ولكنَّا نستأثر عليهم ، لا نجد - واللهِ - من الطعام الطيِّب ما نأكل ونُطعمهم »[١] .

وقال عروة بن الزبير رضي الله عنهما : « رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه على عاتِقِه قربة ماء ، فقلتُ : يا أمير المؤمنين ، لا ينبغي لك هذا . فقال : لمَّا أتاني الوفود سامعين مطيعين ، دخلتْ نفْسي نخوةٌ ، فأردتُ أن أكسرها »[٢] .

وعن سنان بن سلمة الهُذلي قال : خرجتُ مع الغلمان ونحن نلتقط البلح ، فإذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه معه الدِّرَّة، فلمَّا رآه الغِلمانُ تفرَّقوا في النَّخْل. قال : وقمتُ وفي إزاري شيءٌ قد لقطتُه ، فقلتُ : يا أمير المؤمنين ، هذا ما تُلقي الريح . قال : فنظر إليه في إزاري فلم يضربني ، فقلتُ : يا أمير المؤمنين ، الغلمان الآن بين يديَّ ، وسيأخذون ما معي . قال : كلا ، امشِ . قال : فجاء معي إلى أهلي [٣] .

وقسَّم عمر بن الخطاب رضي الله عنه بين الصحابة رضي الله عنهم حُلَلًا ، فبعث إلى معاذ حُلَّة ثمينة ، فباعها ، واشترى بثمنها ستة أعبد وأعتقهم ، فبلغ ذلك عمر ، فبعث إليه بعد ذلك حُلَّة دونها ، فعاتبه معاذ ، فقال عمر : لأنك بعت الأولى . فقال معاذ : وما عليك ؟! ادفع لي نصيبي ، وقد حلفت لأضربن بها رأسك . فقال عمر رضي الله عنه : رأسي بين يديْك ، وقد يُرفق الشابُّ بالشيخ[٤] .

(١) صحيح الإسناد : رواه البخاري في الأدب المفرد ، وقال الألباني في صحيح الأدب المفرد صـ٩٣ : صحيح الإسناد .
(٢) مدارج السالكين ٢/٣٣٠ .
(٣) حياة الصحابة ٢/٥٥١ .
(٤) مدارج السالكين ٢/٣٣٠ .

لله درُّك يا ابن الخطاب !! فكل حياتك مواقف تعجزُ عن وصفها الكلمات .

تواضعُ ذي النوريْن عثمان بن عفَّان رضي الله عنه :

عن ميمون بن مهران قال : أخبَرَني الهمداني أنه رأى عثمان بن عفان رضي الله عنه على بغلة ، وخلفه عليها غلامه نائل وهو خليفة[١] .

وقال أيضًا : رأيتُ عثمان نائمًا في المسجد في مِلحفة ، ليس حوْلَه أحد وهو أمير المؤمنين .

تواضع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه :

عن عمرو بن قيْس : أن عليًّا رضي الله عنه رُئَي عليه إزار مرقوع ، فعُوتِب في لبوسه ، فقال : يقتدي به المؤمن ، ويخشع له القلب[٢] .

تواضع عبد الرحمن بن عوْف رضي الله عنه :

عن سعد بن الحسن التميمي ، قال : كان عبد الرحمن بن عوف لا يُعرَف مِن بين عبيده . يعني : من التواضع في الزِّيِّ .

رضي الله عن صحابة رسول الله ﷺ الذين علموا فعمِلوا .. علموا قول رسولهم ﷺ : « البذاذةُ من الإيمان »[٣] . والبذاذةُ: اللباسُ دون اللباس والتواضع ، ورَثَاثة الثياب في الملبس والمفرش . وقد قال ﷺ : « مَن ترك اللباس تواضعًا لله ، وهو يقدر عليه ؛ دعاه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق ،

---

(١) الزهد لأحمد صـ١١٧ .

(٢) إسناده صحيح : أخرجه أحمد في فضائل الصحابة ، وهنَّاد بن السريّ في الزهد ، وابن سعد في الطبقات ، وابن أبي الدنيا في التواضع والخمول .

(٣) صحيح: أخرجه أبو داود وابن ماجه، والبخاري في تاريخه ، والطبراني في المعجم الكبير ، والحاكم في المستدرك وصحَّحه ، ووافقه الذهبي ، وصحَّحه الألباني .

حتى يخيرَّه من أي حُللِ الإيمان شاء يلبسها »[(١)] .

ولله درُّ القائل :

لَيسَ الجمالُ بمِئْزَرٍ فاعلمْ وإنْ رُدِّيتَ بُرْدَا
إنَّ الجمالَ معادِنٌ ومحاسِنٌ أَوْرثنَ مجْدَا

عن نبي الله عيسى بن مريم قال : جوْدةُ الثياب خُيَلاءُ القلب .

«وولي أبو هريرة رضي الله عنه إمارة مرَّة، فكان يحمل حُزْمةَ الحطب على ظهره ويقول : طرِّقوا للأمير .

وركِب زيد بن ثابت مرة ، فدنا ابن عباس ليأخذ بركابه ، فقال : مَهْ يا ابن عمِّ رسول الله !! فقال : هكذا أُمِرْنا أن نفعل بكبرائنا . فقال: أَرِني يدَكَ ، فأخرجها إليه فقبلها، فقال: هكذا أُمرنا أن نفعل بأهل بيت رسول الله ﷺ .

ومرَّ الحسن على صبيانَ معهم كِسرُ خُبز ، فاستضافوه فنزل ، فأكل معهم ثم حملهم إلى منزله ، فأطعمهم وكساهم ، وقال : اليدُ لهم . لأنهم لا يجدون شيئًا غير ما أطعموني ، ونحن نجدُ أكثر منه .

ويُذكر أن أبا ذرٍّ رضي الله عنه عَيّر بلالًا رضي الله عنه بسواده، ثم ندِم ، فألقى بنفسه ، فحلف : لا رفعت رأسي حتى يطأ بلالٌ خَدِّي بقدمه . فلم يرفع رأسه حتى فعَل بلال »[(٢)] .

عن فُضيل بن عياض قال : رئي على سلْمَان جُبَّةٌ من صوف ، فقيل له : لو لبِستَ أليَنَ من هذا ؟ قال : إنما أنا عبد ، ألبسُ كما يلبَسُ العبد ، فإذا عُتِقْتُ لبستُ ثيابًا لا تبْلَى حواشيها[(٣)] .

---

(١) حسن : رواه الترمذي ، والحاكم في المستدرك عن معاذ بن أنس ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٠٢١ .

(٢) مدارج السالكين ٢/٣٣٠ .

(٣) التواضع والخمول لابن أبي الدنيا صـ١٧١ - طبع : دار الاعتصام .

وعن سلامة العجلي قال : جاء ابن أُختٍ لي من البادية ، يُقال له : قدامة ، فقال لي : أحبُّ أن ألقى سلمان الفارسي رضي الله عنه فأُسلِّم عليه ، فخرجنا إليه فوجدناه بالمدائن وهو يومئذ على عشرين ألفًا ، ووجدناه على سرير يسفُّ خوصًا ، فسلَّمنا عليه ، قلتُ : يا أبا عبد الله ، هذا ابن أخت لي قدِم عليَّ من البادية فأَحَبَّ أن يسلِّم عليك . قال : وعليه السلام ورحمة الله . قلتُ : يزعم أنه يحبُّك . قال : أحبَّه الله[1] .

وعن هريم قال : رأيتُ سلمان الفارسيَّ على حمارٍ عري ، وعليه قميص سنبلاني قصير ضيِّق الأسفل ، وكان رجلًا طويلَ الساق كثير الشَّعْر ، وقد ارتفع القميص حتى بلغ قريبًا من ركبتَيْه . قال : ورأيتُ الصبيان يحضرون خلفه ، فقلتُ : ألا تَنَحَّون عن الأمير ؟ فقال : دعهمْ ؛ فإنما الخير والشرُّ فيما بعد اليوم[2] .

وعن عبد الله بن سلام رضي الله عنه أنه مرَّ في السوق وعليه حزمة من حطب ، فقيل له : ما يحملك على هذا وقد أغناك الله عن هذا ؟ قال : أردتُ أن أدفع الكبْرَ ؛ سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « لا يدخل الجنة مَن في قلبه خردلة من كِبْرٍ »[3] .

وفي الصحيح من حديث (احتجاج الجنة والنار) : « أنَّ النار قالت : ما لي لا يدخلني إلّا الجبَّارون والمتكبِّرون ؟! وقالت الجنة : ما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم ؟! » .

---

(١) حياة الصحابة ٢/٥٥٥ . ويسفُّ خوصًا : أي ينسج سَعف النخل .
انظر التواضع وأثره في حياة الأُمَّة لسيف النصر علي عيسى - مكتبة الحرمين .

(٢) حياة الصحابة ٢/٥٥٧ .

(٣) إسناده حسن : رواه الطبراني .

قال رسول الله ﷺ : « ألا أخبركم بمن تحرُم عليه النار غدًا ؟ على كلِّ هيِّن ليِّن ، قريبٍ سهل »[(١)] .

الصحابي الجليل عمَّار بن ياسر رضي الله عنه :

قال عبد الله بن أبي الهذيل : رأيتُ عمارًا اشترى قتًّا[(٢)] بدرهم ، وحَمله على ظهره وهو أمير الكوفة .

صاحب السرِّ : حذيفة بن اليمان رضي الله عنه :

عن ابن سيرين: أن عمر كتب في عهد حذيفة على المدائن : « اسمعوا له وأطيعوا ، وأعطوه ما سألكم » . فخرج من عند عمر على حمار مُوكَف ، تحته زاده ؛ فلمَّا قدم استقبله الدهاقينُ وبيده رغيف ، وعَرْق من لحم[(٣)] .

وعن أبي رافع قال : كان مروان ربما استخلف أبا هريرة على المدينة ، فيركب حمارًا ببرذعة ، وفي رأسه خُلْبة من ليف ، فيسير ، فيلقى الرجل ؛ فيقول : الطريق ؛ قد جاء الأمير .

تواضعُ التابِعينَ ومَن بَعْدَهم :

قال طاووس : إني لأغسل ثوبيَّ هذيْن فأنكر نفسي .

وقال شيخ من همدان : بعثني قومي في الجاهلية بخَيْل أهدَوْها لذي الكلاع ،

---

(١) صحيح : رواه أبو يعلى عن جابر ، ورواه الترمذي ، والطبراني في الكبير عن ابن مسعود ، وأخرجه أحمد ، وابن حبان ، والطبراني في الأوسط ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٦٠٦ .

(٢) القت : الفصفصة ، وهي الرطبة من علف الدوابِّ . انظر الترجمة في السير ١/٤٠٦ - ٤٢٨ .

(٣) انظرالسير ٢/٣٦١ - ٣٦٩ . وموكف : أي قد وضع عليه الإكاف ، وهو بمنزلة السرج للحصان . والدهاقين : رؤساء القرى أو التجار .

فأقمتُ ببابه سَنَة لا أصلُ إليه ، ثم أشرفَ إشرافةً على الناس من غرْفة له ، فخرُّوا له سجودًا ، ثم جلس فلقيتُه بالخيل فقبلها ، ثم لقد رأيتُه بحمْص - وقد أسلم - يحمل الدرهم اللحم ، فيبتدره قومُه فيأخذونه منه فيأبى تواضعًا ، وقال :

أفٍّ لذي الدنيا إذا كانتْ كذا أنا منها كلَّ يومٍ في أذَى
ولقد كنتُ إذا ما قيل مَنْ أنعم الناسِ معاشًا قيلَ ذا
ثم بُدِّلتُ بعيشٍ شقوة حبَّذا هذا شقاء حبَّذَا

وذو الكلاع رحمه الله هو أسميفيع بن ناكور ، أبو شراحبيل ، أسلم في حياة النبي ﷺ ولم يره . أعتق أربعة آلاف ، سأله عمر في بيعهنَّ فأبى ، فقال : لأني أذنبتُ ذنبًا عظيمًا ، فعسى أن يكون ذلك كفَّارةً ، وذلك أني تواريتُ مرة ثم أشرفتُ فسجَدَ لي مائة ألف . وشهد رحمه الله وقعة اليرموك وفتح دمشق .

وعن طريف قال : رأيتُ الربيع بن خُثيم يحمل عرقة إلى بيت عمته[1] .

وعن إبراهيم بن أبي عبلة قال : رأيتُ أمَّ الدرداء مع نساء المساكين جالسةً ببيت المقدس .

وعن حمَّاد بن زيد قال: ما رأيتُ محمد بن واسع إلَّا وكأنه يبكي، وكان يجلس مع المساكين والبكَّائين[2] .

ورأى ابنُ واسع رحمه الله ابنًا له يمشي مشية منكرة ، فقال : « تدري بكم شريتُ أمَّكَ ؟ بثلاثمائة درهم ، وأبوك - لا كثَّرَ اللهُ في المسلمين مثله - أنا ،

(١) العَرَقة : هي القفَّة المنسوجة بالخوص .
(٢) التواضع والخمول لابن أبي الدنيا صـ١٥١ .

وأنت تمشي هذه المشية[١] ؟!

وبلغ عمر بن عبد العزيز رحمه الله أن ابنًا له اشترى خاتمًا بألف درهم ، فكتب إليه عمر : بلغني أنك اشتريتَ فصًّا بألف درهم ، فإذا أتاك كتابي ، فبع الخاتم وأشبع به ألف بطنٍ ، واتخذ خاتمًا بدرهمَيْن ، واجعل فصَّهُ حديدًا صينيًّا ، واكتبْ عليه : « رحم الله ، امَرَأً عرف قدْرَ نفسه » .

وقال رجاء بن حيوة : قوّمت ثياب عمر بن العزيز رضي الله عنه – وهو يخطب – باثني عشر درهمًا ، وكانت قباء وعمامة وقميصًا وسراويل ورداء وخُفَّيْن وقلنسوة .

ودخل على عمر بن العزيز واحد من أقربائه فهَالَهُ ما رأى ؛ لقد رآه لائذًا بركْنِ شمسٍ عن داره ، متدثِّرًا بإزار ، فحسِبَه مريضًا فسأله : ما الخطب يا أمير المؤمنين ؟ فأجابه عمر : لا شيء .. إني أنتظر ثيابي حتى تجفَّ ، فعاد الزائر يسأل الخليفة : وما ثيابك يا أمير المؤمنين ؟ قال عمر : قميص ورداء وإزار . قال الزائر : ألا تتخذ قميصًا آخر ورداءً أو إزارًا ؟ فأجابه : قد كان لي ذلك ثم تمزقت . قال : ألا تتخذ سواها ؟ فيطرق عمر ، ويجهش بالبكاء ، ويردِّد قول الله تعالى : ﴿ **تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون عُلوًّا في الأرضِ ولا فسادًا والعاقبةُ للمتقين** ﴾ [القصص : ٨٣] .

الإمامُ القدوةُ مفتي دمشق سعيد بن عبد العزيز :

قال عبد الله بن زيد : كنَّا نجلس إلى مكحول ، ومعنا سعيد بن عبد العزيز ، فكان يسقي الماء في مجلس مكحول[٢] .

---

(١) مدارج السالكين ٢/٣٣١ .
(٢) السير ٨/٣٢ - ٣٨ .

وقال ابن جابر : أقبَل يزيد بن عبد الملك إلى مجلس مكحول ، فهممنا أن نوسِّع له ، فقال : دعوه يتعلَّم التواضع .

تواضعُ إمامِ أهل السُّنَّة أحمد بن حنبل رحمه الله :

« وعن المروزي قال : لم أرَ الفقير في مجلس أعزَّ منه في مجلس أبي عبد الله ؛ كان مائلًا إليهم مقصِرًا عن أهل الدنيا ، وكانَ فيه حلم ، ولم يكن بالعجول ، وكان كثير التواضع ، تعلوه السكينة والوقار ، إذا جلس في مجلسه بعد العصر للفتيا لا يتكلم حتى يُسأل ، وإذا خرج إلى مسجده لم يتصدَّر ، يقعد حيث انتهى به المجلس »(١) .

وكان رحمه الله ربما خرج إلى البقَّال ، فيشتري الجُزْرة الحطب والشيء فيحمله بيده .

«قال محمد بن طارق البغدادي: كنتُ جالسًا إلى جنْب أحمد بن حنبل ، فقلتُ : يا أبا عبد الله ، أستمدّ من محبرتك ؟ فنظر إليّ وقال : لم يبلغ ورعي وورعك هذا . وتبسّم .

وقال يحيى بن معين : ما رأيت مثل أحمد بن حنبل !! صحبناه خمسين سنة ما افتخر علينا بشيءٍ ممَّا كان فيه مِن الصلاح والخير .

وكان الإمـام أحمد رحمه الله يقول : نحن قوم مساكين .

وقال إسماعيل بن إسحاق الثقفي : قلت لأبي عبد الله أولَ ما رأيتُه : يا أبا عبد الله ، ائْذنْ لي أن أُقبِّل رأسك . فقال : لم أبلغْ أنا ذاك .

وقال أبو بكر المروذي : قلتُ لأبي عبد الله : الرجل يُقال له في وجهه : أحيَيْتَ السنة ؟ قال : هذا فساد لقلب الرجل .

---

(١) ترجمة الإمام أحمد من : تاريخ الإسلام صـ٣١ .

وقال خراسانيٌّ للإمام أحمد : الحمد لله الذي رأيتك . فقال له : اقعدْ ، أيُّ شيءٍ ذا ؟! من أنا ؟!

وقال أحمد بن الحسين بن حسَّان : دخلنا على أبي عبد الله ، فقال له شيخ من أهل خراسان : يا أبا عبد الله ، الله الله ؛ فإن الناس يحتاجون إليك ، قد ذهب الناس ؛ فإن كان الحديث لا يمكن ، فمسائل ؛ فإن الناس مضطرون إليك . فقال أبو عبد الله : إليَّ أنا ؟ واغتمَّ من قوله وتنفَّس صعداء ، ورأيتُ في وجهه أثر الغمِّ .

وقيل لأبي عبد الله : جزاك الله عن الإسلام خيرًا . فقال : لا ، بل جزى الله الإسلام عني خيرًا . ثم قال : ومَن أنا ؟! وما أنا ؟

ودُفع إلى أبي عبد الله كتاب من رجل يسأله أن يدعو الله له ، فقال : فإذا دعونا لهذا نحن ؛ مَن يدعو لنا ؟!

وقال محمد بن أحمد بن واصل : سمعتُ أبا عبد الله غيرَ مرة يقول : مَن أنا حتى تجيئون إليّ ؟! من أنا حتى تجيئون إليّ ؟! اذهبوا اطلبوا الحديث .

وقال أبو بكر المروذي : سمعتُ أبا عبد الله أحمد بن حنبل وذكَر أخلاق الورعين ، فقال : أسأل الله أن لا يمقتنا ، أين نحن من هؤلاء ؟!

وقلتُ لأبي عبد الله : ما أكثر الداعين لك !! فتغرغرتْ عينُه وقال : أخاف أن يكون هذا استدراجًا ، أسأل الله أن يجعلنا خيرًا ممَّا يظنون ويغفر لنا ما لا يعلمون .

قلتُ لأبي عبد الله : إن بعض المحدِّثين قال لي : أبو عبد الله لم يزهد في الدراهم وحْدَها ؛ قد زهد في الناس . فقال أبو عبد الله : ومَن أنا حتى أزهد في الناس ؟! الناس يريدون يزهدون فيَّ .

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل : رأيتُ أبي إذا جاءه الشيخ والحدَث من قريش أو غيرهم من الأشراف ، لا يخرج من باب المسجد حتى يُخرجهم ،

فيكونوا هم يتقدمونه ، ثم يخرج بعدهم .

وقال أحمد بن علي الأبار : سمعتُ أبا عبد الله أحمد بن حنبل ، وسأله رجل : حلفتُ بيمينٍ ما أرى أيّ شيء هي ؟ فقال : ليتَ أنك إذا دريتَ دريتُ أنا .

وقال أبو عثمان الشافعي لأبي عبد الله أحمد بن حنبل : لا يزال الناس بخير ما منَّ الله عليهم ببقائك . وكلام من هذا النحو كثير ، فقال له : لا تقلْ هذا يا أبا عثمان ؛ لا تقلْ هذا يا أبا عثمان ، ومَن أنا في الناس ؟!

وقال علي بن عبد الصمد الطيالسي : مسحتُ يدي على أحمد بن حنبل ، ثم مسحتُ يدي على بدني وهو ينظر ، فغضب غضبًا شديدًا ، وجعل ينفض يدَه ويقول : عمَّن أخذتم هذا ؟! وأنكره إنكارًا شديدًا .

وقال خطاب : وسألته عن شيء من الورَع ، فرأيتهُ قد أظهر الاغتمام ، وتبيَّن عليه في وجهه؛ إزراءً على نفسه، واغتمامًا بأمره، حتى شقَّ عليّ، فقلتُ لرجل كان معي حين خرجنا : ما أراه ينتفع بنفسه أيامًا ؛ جدَّدنا عليه غمًّا »[1] .

بهذا صار مالكٌ مالكًا :

قال مالك بن دينار : لو أنَّ مناديًا ينادي بباب المسجد : ليخرجْ شرّكم رجلًا . واللهِ ما كان أحد يسبقني إلى الباب إلّا رجلًا بفضل قوَّة أو سعْي . قال : فلمّا بلغ ابنَ المبارك قولُه ، قال : بهذا صارَ مالكٌ مالكًا .

وقال موسى بن القاسم : كانت عندنا زلزلة وريح حمراء ، فذهبتُ إلى محمد بن مقاتل ، فقلتُ : يا أبا عبد الله ، أنت إمامنا فادعُ الله عزَّ وجلّ لنا .

(١) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي صـ٣٣٤ - ٣٤٧ .

فبكى ثم قال : ليتني لم أكن سببَ هلاككم . قال : فرأيتُ النبي ﷺ في النوم ، فقال : « إن الله عز وجل رفع عنكم بدعاء محمد بن مقاتل » .

وقال المغيرة : كنا نهاب إبراهيم النخعي هيبة الأمير ، وكان يقول : إن زمانًا صرتُ فيه فقيهَ الكوفة لَزَمَان سوءٍ .

الإمام القدوة العابد أحمد الرفاعي :

جاء في ترجمته في « السير » (٢١/٧٧ - ٨٠) : كان رحمه الله يجمع الحطب ، ويجيء به إلى بيوت الأرامل ، ويملأ لهم بالجرَّة .

أُحضر بين يديْه طبقُ تمرٍ ، فبقي ينقّي لنفسه الحشَفَ يأكله ، ويقول : أنا أحقُّ بالدُّون ؛ فإني مثله دون .

وكان رحمه الله يقول : أقرب الطريق : الانكسار والذل والافتقار ؛ تعظّم أمْرَ الله ، وتشفق على خلْق الله ، وتقتدي بسنة رسول الله ﷺ .

مِن مظاهر التواضع وصفات المتواضعين :

كراهيتهم مشْي الناسِ خلفهم :

عن شعيبِ بن محمد بن عبد الله بن عمرو، عن أبيه قال: ما رئي رسول الله ﷺ يأكل متكئًا ولا يطأ عقبه رجلانِ[1] .

قال أبو الدرداء : لا يزال العبد يزداد من الله بعدًا ما مُشي خلفه .

سار قوم خلفَ عبد الله بن مسعود ، فنظر إليهم غاضبًا وقال لهم : ارجعوا ؛ فإنها فتنةٌ للمتبوع ، وذلَّة للتابع .

ومن صفات المتواضعين : زيارتُهم لغيرهم :

قدم سفيان الثوري « الرملة » ، فبعث إليه إبراهيم بن أدهم : أن تعال فحدِّثْنا .

---

(١) إسناده حسن : أخرجه ابن أبي الدنيا في : التواضع والخمول ، وأبو الشيخ في : أخلاق النبي ، والبيهقي في : الزهد .

فجاء سفيان ، فقيل له : يا أبا إسحاق ، تبعث إليه بمثل هذا ؟! فقال : أردتُ أن أنظر كيفَ تواضعه .

ولا يستنكفون من جلوس غيرهم إلى جوارهم :

قال ابن وهب : جلستُ إلى عبد العزيز بن أبي روّاد فمسّ فخِذي فخِذَه ، فنحَّيتُ نفسي عنه ، فأخذ ثيابي فجرَّني إلى نفسه وقال لي : لِمَ تفعلون بي ما تفعلون بالجبابرة ، وإني لا أعرف رجلًا منكم شرًّا مني ؟!

ومن صفاتهم : عدم أَنَفَتهم من حْمل أمتعتهم الخاصَّة :

قال علي رضي الله عنه : لا يُنقِص الرجل الكامل من كماله ما حَمل مِن شيء إلى عياله .

وعن الأصبغ بن نباتة قال : كأني أنظر إلى عمر رضي الله عنه معلِّقًا لحْمًا في يده اليسرى ، وفي يده اليمنى الدِّرَّة ، يدور في الأسواق حتى دخل رَحْلَه .

ومن صفاتهم : جلوسهم إلى المساكين :

عن مسعر قال : مرَّ الحسين بن علي رضي الله عنه على مساكين وقد بسطوا كساءً وبين أيديهم كِسَرٌ ، فقالوا : هلمَّ يا أبا عبد الله ، فحوَّل وِرْكَهُ وقرأ ﴿ **إنه لا يحبُّ المستكبرين** ﴾ [النحل : ٢٣] ، فأكل معهم ، ثم قال : قد أجبتُكم فأجيبوني . فقال للرباب – يعني امرأته –: أَخْرِجي ما كنتِ تدَّخرين[(١)] .

ومن التواضع : معرفة قدْر النفس ، وأن لا تجعل لنفسِكَ قدرًا مع العلماء الربانيين :

« فلا ينظر الشابُّ المبتدئ إلى نفسه على أنه نِدٌّ لهذا العالِم أو ذاك ويقول :

---

(١) التواضع والخمول صـ١٥١ .

هم رجال ونحن رجال .. بل - والله - حالنا وحالهم كما يقول القائل : العلماء نسور في السحاب ونحن نحبو أُغَيْلِمة على التراب .

ولربما رأيت طويْلبَ علمٍ لا يحفظ من القرآن إلّا اليسير ، ولا يكاد يحفظ حديثًا من البخاري أو مسلم بحروفه ، فضلًا عن سنَدِه ومعناه .. ومع هذا يقف أمام جهابذة العلماء وكأنه أبو حنيفة أو الشافعي !! وهِجِّيراهُ أن يقول : أرى . وأنا . وقلتُ . وعندي ....!!

يقولونَ هذا عندنا غيرُ جائز ومَنْ أنتُمُ حتى يكونَ لكمْ عِندُ

ومن التواضع : أن يتواضع المرءُ مع أقرانه :

فربما استعلى الإنسان على قرينه ، وربما فرِح بالنيْل منه ، والحطِّ من قدْره وشأنه ، وعيَّبه بما ليس فيه ، أو تضخيم ما فيه ، وقد يظهر ذلك بمظهر النصيحة والتقويم وإبداء الملاحظات ، ولو سمَّى الأمور بأسمائها الحقيقية ، لَقال : الغيْرة .

والعجب أنْ يَغار الداعية من اجتماع ألفٍ أو ألفيْن في مجلس علْمٍ أو دعوة ، لكنَّه لا ينفعل لو سمع أن حفلًا غنائيًا أو مباراة رياضية حضَرَها عشرون أو ثلاثون ألفًا . وهذا والله من البُؤْس ، حتى لو كنتَ لا ترضى من أخيك بعض الأمر ، يَكفيك أن يدعو إلى الله ، ويعلِّم الناس الدين ، وهو على الجادَّة إجمالًا .

ومَن ذا الذي تُرضَى سجاياهُ كلُّها كفى المرءَ نُبْلًا أن تُعدَّ معايبُهْ

ومن التواضع : التواضع مع من هو دونك :

فإذا وجدتَ أحدًا أصغر منك سنًّا ، أو أقلّ منك قدرًا فلا تحقرْه ؛ فقد يكون أسلمَ منك قلبًا ، أو أقلَّ منك ذنبًا ، أو أعظم منك إلى الله قرْبًا ، حتى لو رأيتَ إنسانًا فاسقًا وأنت يظهر عليك الصلاح ، فلا تستكبرْ عليه ، واحمدِ الله

على أن نجَّاك ممَّا ابتلاه به ، وتذكَّرْ أنه ربما يكون في عملك رياء أو عجب يُحبطه ، وقد يكون عند هذا المذنب مِن الندم والانكسار والخوف من خطيئته ، ما يكون سببًا في غفران ذنبه .

ومن التواضع :

أن لا يعظم في عينيك عملك ؛ إن عملتَ خيرًا ، أو تقرَّبتَ إلى الله بطاعة ، فإنَّ العمل قد لا يُقبل، و ﴿**إنما يتقبَّل الله مِن المتقين** ..﴾ [المائدة : ٢٧] . ولهذا قال بعض السلف : لو أعلم أن اللهَ قبل مني تسبيحة لَتمنيتُ أن أموتَ الآن »[١] .

ومن التواضع :

« أن يتواضع بالاحتمال إذا سُبَّ وأوذي وأُخذَ حقّه ؛ فذلك هو الأصل »[٢] .

ومن التواضع : أن لا يتوقى من مجالسة المرْضى والمعلولين كِبْرًا منه وترفُّعًا :

فعن جابر بن عبد الله قال : أخذ رسول الله ﷺ بيد مجذوم فأدخلها معه في القصْعَة ، وقال : « كُلْ باسمِ اللهِ ، ثقةً بالله ، وتوكُّلًا على الله »[٣] .

ومن التواضع: إجابة الدعوة ، ولو إلى أيسرِ شيءٍ :

كان ﷺ يعود المرضى، ويشهد الجنازة، ويركب الحمار، ويجيب دعوة العبد .

---

(١) من أخلاق الداعية لسلمان فهد العودة صـ٣٣ - ٣٦ بتصرُّف يسير .
(٢) إحياء علوم الدين ٣/٣٧٦ .
(٣) إسناده حسن : أخرجه الترمذي ، وأبو داود ، وابن ماجه وابن حبان ، والبغوي في شرح السنة ، وابن أبي الدنيا في : التواضع والخمول .

قال ﷺ : « لو دُعيتُ إلى ذراع – أو كُراع – لَأجبتُ ، ولو أُهديَ إليَّ ذراعٌ – أو كراع – لَقبلتُ »[١] .

أقوالٌ عَطِرةٌ في التواضع :

سُئِل الفضيل عن التواضع ، فقال : يخضع للحق ، وينقاد له ، ويقبله ممَّن قاله . قال الفضيل : « لو سمعته من صبيٍّ قبلتُه منه ، ولو سمعتُه من أجهل الناس ، قبلتُه منه » .

وقيل : التواضع أن لا ترى لنفسِك قيمة ؛ فَمَنْ رأَى لنفْسِهِ قيمة فليس له في التواضع نصيب .

وهذا مذهب الفضيل وغيره .

وقال الجنيد بن محمد : هو خفْض الجناح ، ولِين الجانب .

وقال أبو يزيد البسطامي : هو أن لا يرى لنفسه مقامًا ولا حالًا ، ولا يرى في الخلْق شرًّا منه .

وقال ابن عطاء : هو قبول الحقِّ ممن كان . والعزُّ في التواضع . فمَن طلبه في الكبر فهو كتطلُّب الماء من النار .

وقال حمدون القصَّار : التواضُع أن لا ترى لأحدٍ إلى نفسك حاجة ، لا في الدين ولا في الدنيا .

قال صاحب « المنازل » شيخ الإسلام الهروي : « التواضع : أن يتواضع العبد لصوْلة الحقِّ » .

قال ابن القيم : « يعني : أن يتلقَّى سلطان الحق بالخضوع له ، والذلِّ ، والانقياد ، والدخول تحت رِقِّه ، بحيث يكون الحقُّ متصرِّفًا فيه تصرُّف المالك في مملوكه . فبهذا يحصل للعبد خُلُق التواضع ؛ ولهذا فسر النبي ﷺ الكبْر بضدِّه ، فقال : « الكبْرُ بَطْر الحقِّ ، وغَمْص الناس » . فبطر الحق : رَدُّه وجَحْده ،

---

(١) رواه البخاري عن أبي هريرة .

والدفع في صدره ، كدفع الصائل . و غمص الناس : احتقارهم ، وازدراؤهم . ومتى احتقرهم وازدراهم ؛ دفَع حقوقهم ، وجحدها ، واستهان بها .

ولمَّا كان لصاحب الحق مقال وصوْلة ؛ كانت النفوس المتكبِّرة لا تُقِرُّ له بالصولة على تلك الصَوْلة التي فيها ، ولا سيما النفوس المبطلة ، فتصول على صولة الحق بكبْرها وباطلها . فكان حقيقة التواضع : خضوع العبد لصولة الحق ، وانقياده لها ، فلا يقابلها بصولته عليها »[١] .

وقال يوسف بن أسباط: يجزئ قليل الورع مِن كثير العمل ، ويجزئ قليل التواضع من كثير الاجتهاد .

رأسُ التواضع :

قال ابن المبارك : رأسُ التواضع أن تضعَ نفسك عند من هو دونك في نعمة الدنيا ، حتى تُعْلِمَه أنْ ليس لك بدنياك عليه فضل ، وأن ترفع نفسَك عمَّن هو فوقك في نعمة الدنيا حتى تعلِمَهُ أنه ليس له بدنياه عليك فضل[٢] .

قال يحيى بن كثير : رأس التواضع ثلاث : أن ترضى بالدُّون من شرف المجلس ، وأن تبدأ من لقيتَه بالسلام ، وأن تكره المدحة ، والسمعة ، والرياء بالبِرِّ .

قال يحيى بن أبي العاص لعبد الملك بن مروان : أي الرجال أفضل ؟ قال : مَن تواضع عن رِفعةٍ ، وزهد على قدْرة، وترك النصرة على قومه .

المتواضع في شَرَفِهِ يُكتب من خالص الله عزَّ وجل :

دخل ابن السمَّاك على هارون الرشيد، فقال: يا أمير المؤمنين، والله لَتَواضُعُك

(١) مدارج السالكين ٢/٣٣٣ .
(٢) التواضع والخمول صـ١٤٢ .

في شرَفك أشرفُ لك من شرفك . فقال : ما أحسن ما قلتَ !! فقال : يا أمير المؤمنين ، إن امرأً آتاه الله عز وجلّ جمالًا في خَلقه وموضعًا في حسَبه ، وبسَطَ له في ذات يده ؛ فعفَّ في جماله ، وواسى في ماله ، وتواضَعَ في حَسَبه - كُتب في ديوان الله عز وجل من خالص الله عز وجل . قال : فدعا هارون بدواة وقرطاسٍ وكتَب هذا الكلام بيده[1] .

فطوبى للمتواضعين في الدنيا !! هم أصحاب المنار يوم القيامة .

وقالوا : « إن الزرْع يَنبُت في السهل ولا ينبُتُ على الصَّفَا ، كذلك الحكمة تعمل في قلب المتواضع ، ولا تعمل في قلب المتكبر ، ألا ترون أنَّ مَن شمخ برأسه إلى السقف شجَّه ، ومَن طأطأ أظلَّه وأكنَّه ؟! » .

فهذا مثَلٌ ضربه للمتكبرين وكيف أنهم يُحرمون الحكمة .

خرج يونس وأيوب والحسن يتذاكرون التواضع ؛ فقال لهم الحسن : أتدرون ما التواضع ؟ التواضع أن تخرج من منزلك ولا تلقى مسلمًا إلَّا رأيت له عليك فضلًا .

وقال زياد النمري : الزاهد بغيْر تواضع كالشجرة التي لا تثمر .

وقال الشبلي : ذلِّي عطَّل ذلَّ اليهود .

ويقال : مَن يرى لنفسه قيمة ، فليس له من التواضع نصيب .

وقال أبو سليمان : لا يتواضع العبد حتى يعرف نفسه .

وقال أيضًا : لو اجتمع الخلْق على أن يضعوني كاتضاعي عند نفسي ، ما قدروا عليه .

وقال أبو يزيد : ما دام العبد يظن أنَّ في الخلْق من هو شرٌّ منه فهو متكبِّر

---

(١) التواضع والخمول صـ١٤٤ - ١٤٥ .

فقيل له : فمتى يكون متواضعًا ؟ قال : إذا لم يرَ لنفسه مقامًا ولا حالًا .

وقالوا : ما أحسن التواضع بالأغنياء في مجالس الفقراء ، رغبةً منهم في ثواب الله !! وأحسن منه تيه الفقراء على الأغنياء ثقةً منهم بالله عزَّ وجلَّ .

وقال يحيى بن معاذ : التكبُّر على ذي التكبُّر عليك بماله : تواضعٌ .

وقال مقدام العلماء معاذ بن جبل رضي الله عنه : « لن يبلغ العبد ذُرى الإيمان حتى يكون التواضع أحبَّ إليه من الشرف ، وما قلَّ من الدنيا أحبَّ إليه مما كثر ، ويكون مَن أحبَّ وأبغضَ في الحقِّ سواء ، يحكمُ للناس كما يحكم لنفسه »[1] .

وقال عبد الله بن عمر : « رأسُ التواضع أن ترضى بأدون المجالس ، لا لحظ نفسٍ ، فقد يجلس أحدهم عند النعال ومعه من الكِبْر ما الله به عليم ، وما حمله على مجلسه ذلك إلّا ليُقال : إنه متواضع » .

وكان يقول : مِن علامة تواضعك أن تكره ذكْرَك بالبر والتقوى بين الناس .

وقالوا : الشرِيف إذا تنسَّك تواضع ، والسفيه إذا تَنسَّك تعاظم .

وقالت الحكماء : ثلاثة من أحسن الأشياء : جُود لغير ثواب ، ونصَبٌ لغيْر دنيا ، وتواضع لغير مذلَّة .

وقال ذو النون المصري : علامة السعادة ثلاث : متى ما زِيدَ في عمره نقص مِن حرْصه، ومتى ما زيد في ماله زيد في سخائه، ومتى ما زيد في قدره زِيدَ في تواضعه .

وقال أبو حاتم البستي : التواضع يرفع المرء قدرًا ، ويعظم له خطرًا ،

---

(١) الزهد لابن المبارك صـ٥٢ .

ويزيده نُبلًا .

ولله درُّ الشاعر إذ يقول :

تواضع تكنْ كالنجمِ لاحَ لناظرٍ على صفحَاتِ المـاءِ وهْـوَ رفيـعُ
ولا تكُ كالدُّخَـانِ يعلـو بنفسـهِ إلـى طبقـاتِ الجـوِّ وهْـوَ وضيـعُ

وقال الشاعر :

تواضعْ إذا ما نلْتَ في الناسِ رفعةً فـإنَّ رفيـعَ القـومِ مَـن يتـواضـعُ

وقال يوسف بن أسباط :

وكفى بمُلْتمِسِ التواضعِ رِفْعةً وكفـى بمُلْتمِسِ العلوِّ سِفـالَا

وقال الشاعر :

وأحسنُ مقرونيْنِ في عيْنِ ناظرٍ جلالةُ قَدْرٍ في خمولِ تواضعِ

وقال الشاعر :

تواضع إذا ما كان قدرُك عاليًا فإنَّ اتضاعَ المرءِ مِن شيَمِ العقلِ

وقال الشاعر :

إنَّ التواضعَ مِن خصالِ المتقي وبهِ التقيُّ إلى المعالي يـرتقي

وفي الصحيح الموقـوف على عائشة رضي الله عنها ، قالـت : « إنـكم لتغفلون أفضلَ العبادة : التواضع » .

فللَّه درُّها ودرُّ أبيها !!

ونختم بما صحَّ عن رسولنا ﷺ ؛ حيث قال : « انتسبَ رجلانِ على عهدِ موسى ؛ فقال أحدهما : أنا فلان بن فلان – حتى عدَّ تسعةً – فمن أنت لا أُمَّ لـك ؟ قال : أنا فلان بن فلان بن الإسلام . فأوحى الله إلـى موسى : أن

قل لهذيْن المنتسبَيْن : أمَّا أنت أيُّها المنتسب إلى تسعةٍ في النار ، فأنت عاشرهم في النار . وأما أنتَ أيُّها المنتسب إلى اثنين في الجنة ، فأنت ثالثهما في الجنة »[1] .

* * *

(١) صحيح : رواه النسائي ، والبيهقي في الشعب ، والضياء وأحمد ، والطبراني في الكبير عن أبيّ ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٥٠٤ ، والصحيحة رقم ١٢٧٠ .